الحملة العسكرية الجزائرية على تونس سنة 1705م
في عهد الداي مصطفى عشي -مجرياتها وتداعياتها-

The Algerian military campaign against Tunisia in 1705 under the reign of Dey Mustafa Achi - its course and its repercussions-

سحابات زهيرة♦

جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس ، zahirasehabat@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/02/15 تاريخ القبول: 2023/05/20 تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص باللغة العربية: شهد القطر التونسي مع نهاية القرن 17 وبداية القرن 18م توترات سياسية داخل بلاطها، وهذا بعد أن سيطر ابراهيم الشريف على الحكم ملغيا بذلك حكم البايات المراديين عام 1702م، والذي أدرك منذ بداية حكمه أن استقرار مملكته مرتبط بإقرار السلم مع جارته الجزائر مع دفع إتاوة سنوية لها، لكن تخلّف إبراهيم الشريف عن دفع الإتاوة حتم على إيالة الجزائر ودايها الداي مصطفى آنذاك شن حملة عسكرية عليها عام 1705م، والتي اختلفت أسبابها وتعددت نتائجها لدرجة أن تداعياتها كانت بعيدة المدى، فنرى الحكم في تونس يؤول إلى الأسرة الحسينية التي وجدت فراغا سياسيا في تونس بعد إعلان نهاية إبراهيم الشريف.

الكلمات المفتاحية: الجزائر؛ تونس؛ الداي مصطفى؛ إبراهيم الشريف؛ حملة عسكرية.

Abstract: At the end of the 17th century and the beginning of the 18th century AD, the Tunisian space experienced political tensions within its court, and this after Ibrahim al-Sharif took control of the government, thus abolishing the reign des Moradis 1702 AD, who realized from the beginning of his reign that the stability of his kingdom was linked to the establishment of peace with its Algeria, with the payment of an annual fee to it. But Ibrahim al-Sharif's non-payment required the of Algeria and its Dey Mustafa at the time a military campaign against her in 1705, the causes of which were different and the results so numerous that its repercussions were considerable, heralding the end of Ibrahim Al-Sharif.

♦ المؤلف المرسل

Keywords: Algeria; Tunisia; Dey Mustafa; Ibrahim Al-Sharif; Military campaign.

مقدّمة:

لم تسلم تونس من الخلافات السلطوية الحاصلة داخل بلاطها مع بدايات القرن17م، حيث وبعد استقرار المراديين في الحكم سنة1631م، الذين ألغو بذلك نظام الدايات الذي كان قائما آنذاك، ما جعل الفضاء التونسي يدخل في حالة من الفوضى وعدم الإستقرار سواء بين ورثة العرش المرادي أو في صراعهم مع الدايات إضافة إلى ظهور الحروب الأهلية، ما أتاح الفرصة لعسكر الجزائر للتدخل ، وما ساهم لحد كبير أيضا في إضعاف الدولة المرادية وهرمها هو تصرفات آخر باياتها مراد بوبالة الذي دخل إلى الشرق الجزائري متحديا عسكر الإيالة الجزائرية، هذه الأخيرة لم تتوانى عن حقها وراحت تدخل في خضم الصراع، ومن هنا تتغير الأحداث ويتغير مصير الإيالة التونسية التي سوف تعرف هي الأخرى تطورات سياسية هامة، وتدخلات عسكرية جزائرية عليها، وعليه نطرح الإشكال التالي: ما أسباب الحملة الجزائرية على تونس سنة1705م؟ وعلى هذا الأساس نطرح مجموعة من التساؤلات الفرعية من بينها: ما طبيعة العلاقات بين الإيالتين ؟ ما داعي شن الجزائر حملة عسكرية على تونس؟ وفيما تمثلت مجرياتها وتداعياتها؟

1- طبيعة العلاقات السياسية بين الإيالتين قبل سنة1705م:

قبل الولوج في الحديث عن الحملة وأسبابها ومجرياتها لابد أن ننوه إلى طبيعة العلاقات بين الإيالتين قبل عام1705م:

مع اعتلاء المراديين عرش تونس سنة1631م وتوطيد سلطتهم ملغيين بذلك نظام الدايات الذي كان قائما آنذاك[1]لم يرض الدايات بهذا الإلغاء وراحوا ينازعون البايات من أجل استرداد عرشهم المسلوب، وهذا ما جعل البلاد التونسية خاصة مع أواخر العهد المرادي تدخل في حالة من الفوضى سواء بين ورثة العرش المرادي أو حتى في صراع البايات مع الدايات، ما أتيح الفرصة لعسكر الجزائر للتدخل تارة للصلح وتارة لفرض سلطانها عليهم وهذا من أجل الإستفادة من الغزو والحصول على الغنائم[2]، ومن هنا جاء

1 رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس1782م- 1814م، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1980، ص55.

2 عبد الحميد هنية، تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، منشورات أوتار تبر زمان، تونس، 2016، ص 147.

النزاع الحربي المتسلسل الذي فتح للجزائر المجال للتدخل في شؤون تونس السياسية الداخلية[1].

لقد كانت تلك الحروب الأهلية وما تخللها من أحداث وفتن بداية لضعف الدولة المرادية وانحلالها وهرمهاK خاصة بعد تولي السلطة الباي مراد الثالث الذي جر الدولة إلى الإحتضار بسبب جرائمه وفتكه للناس[2]، حيث عرف بالسفاح أو مراد بوبالة[3]، وكان لا يكاد يمر عليه يوم دون أن يسفك دماء، ولهذا وجه مراد هذا رسلا إلى الجزائر بهدية لمتوليها فردها عليه داي الجزائر وأظهر له العداوة، ومن المرجح أن تصرف مراد كان هدفه كسب الجزائر لحسابه باعتبارها ذات تأثير على السلطة التونسية فاستشاط غضبا وعزم على حربهم.[4]

فبعد تجميع مراد باي جيشه سار نحو قسنطينة سنة 1699م، واستطاع أن يهزم بايها وحصارها لمدة ثلاثة أشهر[5]، حيث راح يتقدم نحو سطيف الجزائرية لكن الإمدادات كانت قد وردت من عاصمة الإيالة بعد استنجاد سكانها بالداي الذي جهز بدوره جيشا الذي سار نحو بلاد قسنطينة وواجه الجيش مراد وبعد أن أقيمت بينهما معركة كبيرة انتصر أوجاق الجزائر عليهم[6]، ويذكر العنتري أن سبب انتصار الجزائر على مراد باي أنهم هاجموهم وهم نيام ودخلوا عليهم بضرب السيوف ففتكت بعساكر الباي مراد[7]، الذي قفل راجعا نحو بلاده، والذي في طريقه قصد مدينة القيروان وخرب معالمها ولم يترك سوى المساجد والزوايا[8].

1 حمودة بن محمد ابن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تح: ماضور محمد، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ص 8 .

2 رشاد الإمام، المرجع السابق، ص 54 .

3 البالة لفظ تركي وهو نوع من السيوف الحادة الشفرتين. ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، 1332هـ، ص 145.

4 عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الامبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، ج2، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2005، ص305.

5 محمد الصالح العنتري، فريدة المنسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة و استيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مر وتق وتع: يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.س، ص50.

6 حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص145.

7 محمد صالح العنتري، المصدر السابق، ص51 .

8 حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 145.

ولكثرة الهزائم التي كان يتلقاها وجد ابراهيم الشريف آغا صبايحية الترك[1] الفرصة للإنقضاض عليه، وهذا بالإتفاق مع السلطان العثماني الذي كانت تربطه علاقة جد سيئة مع الباي مراد الثالث، وعلى إثرها قتل هذا الأخير على يد الشريف ومن تبقى من ذرية بني مراد، وتقلد هو منصب الباي منذ سنة1702م كما قلده السلطان العثماني منصب الباشا وأصبح بذلك يجمع بين المناصب الثلاث الباي الداي والباشا .[2]

إن ابراهيم الشريف الذي أحيى الديمقراطية العسكرية كما كانت في عهد الدايات سابقا، نراه يقوم بدعم العنصر التركي على حساب العنصر العربي وهذا من أجل رد الجميل للسلطان العثماني لأنه تقلد المنصب بفضلهم[3]، ولقد أدرك منذ بداية عهده أن استقرار حكمه وسلامة مملكته من التدخلات الجزائرية على الخصوص متوقف على مسالمته لجيرانه، ولهذا نراه يبعث ببعثة إلى الجزائر لإعلام ديوانها بمقتل مراد باي وتعيينه بدلا عنه مطالبا السلم بينهما، وقبل داي الجزائر بدوره هذا السلم[4]، وعلى الرغم من إبرام معاهدة بين الجزائر وباي تونس ابراهيم الشريف يدفع بموجبها إتاوة سنوية للجزائر، إلا أن الباي التونسي توقف عن دفعها فيما بعد، وهو ما سيشعل نار الفتنة بين البلدين من جديد كما هو آت في الذكر[5].

2- أسباب توتر للعلاقات الجزائرية التونسية عام 1705م:

إن دراسة أي موضوع في تاريخ العلاقات لابد أن نلحظ فيه تغييرات تساهم بشكل كبير في تغيير مسارها، وهذا ما نراه في تاريخ العلاقات الجزائرية التونسية خلال هذه الفترة، وفيما يلي أهم الأسباب التي جعلت الجزائر توجه حملة ضد تونس:

2- 1- الصراع التونسي الطرابلسي عام 1704: ضمن الباي ابراهيم الشريف حدوده الغربية لكن حدوده الشرقية لم تكن بأحسن حال، حيث جرت في هذه الفترة مناوشات بين الإيالتين التونسية والطرابلسية، وسبب ذلك أن خليل باي صاحب

---

1 الصبايحية هم نوع من رجال الأمن وظيفتهم تشبه وظيفة الجندرمة في البلاد الأوربية يحرصون على حفظ الراحة وتأمين السبل. ينظر: الرشاد الإمام، المرجع السابق، ص55 .

2 رشاد الإمام، المرجع السابق، ص55.

3A.Guellouz, & al, Histoire général de la Tunisie, T3, Sud Edition, Tunis, 2010, ,p80.

4 عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين حكام الجزائر وتونس في القرن18م- 12ه، دار الأمل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص ص38، 39 .

5 صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م - 1830م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.س، ص149.

طرابلس كان قد استولى على هدية تحوي على مجموعة من الخيول النادرة أرسلت من مصر إلى تونس وعلى سفينة تونسية [1].

رفض خليل باي ردها إلى الباي التونسي رفضا قاطعا وبأسلوب جارح أيضا[2]، وليس هذا السبب الوحيد الذي أراد منه الشريف إعلان الحرب على طرابلس بل هناك حادثة أخرى، مفادها أن سفينة تجارية تونسية محملة ببضائع ثمينة كان قد استولى عليها الطرابلسيون في عرض البحر وأجبروها على دخول مرسى طرابلس رغم إنذارات القبطان التونسي وطاقمه، إلا أن خليل الأرناؤوطي إستولى بالقوة على حمولة السفينة التجارية المسلوبة، ولما علم الشريف بكل هذه المخالفات الغير مرغوبة استشاط غضبا وأعلن الحرب على طرابلس[3]، وكان قد أعلن داي الجزائر مساندته له [4]، كما أعلن مساعدته لباي طرابلس خليل الأرناؤوطي، وعليه فإن الجزائر كانت تلعب على الحبلين ولم تحاول إصلاح ذات البين لأن النزاع بينهما فيه فائدة لها وتعد كل طرف بالنصرة[5]، وكانت نهايتها هزيمة الشريف على يد خليل الأرناؤوطي في جانفي 1705م[6]، وعليه فإن الشقاق بين الإيالتين التونسية والطرابلسية سيكون مفيدا لها، وبالتالي لن يكون هناك أي تحالف ضدها في المستقبل.

2-2- **عدم إرسال الشريف القمح للجزائر من أجل تموينها:** لم ترسل الجزائر مساعدة لتونس في حربها ضد طرابلس بالرغم أنها قد وعدتها بذلك، حيث كان الوعد بالمساندة مقابل سماح تونس لها باستيراد القمح التونسي لأن المحصول الجزائري في تلك السنة كان سيئا للغاية، إلا أن ابراهيم الشريف لم يبعث للجزائر سوى شحنات زهيدة من القمح فهيأ بذلك الجو لجارته الخطيرة التي سوف توجه أسلحتها إلى صدره، فما كان على

---

1 ألفونص روسو، الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر وتق: الوافي عبد الكريم، ط1، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، 1992، ص ص 153، 152.

2 شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العثماني حتى الغزو الإيطالي، تر وتح وتق: محمد عبد الكريم الوافي، ط3، مشورات جامعة قايونس، ليبيا، 1994، ص 246.

3 نفسه، ص246.

4 محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواوي، محمد محفوظ، ط1، مج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص151.

5 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 42

6 روسي إتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تر وتق: خليفة محمد التليسي، ط2، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 1991، ص315.

داي الجزائر إلا عقد مجلسا مع ديوانه من أجل إعلان الحرب على الشريف، كما حاول تحريض الديوان عليه الذي أصدر بدوره قرارات عدائية ضد تونس كلها [1]

2-3- **عدم دفع الضريبة المستحقة:** ما زاد الطين بلة هو عدم دفع الشريف للضريبة التي عليه[2]، وحسب دوغرامون فإن قضية الضريبة هي السبب الوجيه الذي حرك الداي مصطفى في توجيه حملة ضد تونس بإعتبارها رمزا من رموز التبعية ما اضطره لمعاقبة الشريف[3]، بحيث أن الإيالة الجزائرية كانت تشهد عجزا ماليا لأن الخزينة بدأت تنفذ بسبب انقطاع الإمدادات التي كانت تدر عليها من الداخل والخارج [4].

2-4- **طموحات الداي مصطفى التوسعية:** كان من الدايات الطموحين مثل سابقيه من بينهم الداي شعبان وأراد فرض سلطته على تونس من جديد وجعلها تابعة لإيالة الجزائر، ولعل ما أخاف الداي مصطفى هو التجهيزات العسكرية من جند وعدة وعتاد التي جهزها ابراهيم الشريف في تونس، والتي اعتبرها داي الجزائر خطرا على إيالته[5].

2-5- **كره وحقد قبيلة الحنانشة لإبراهيم الشريف:** من أكثر الحاقدين على ابراهيم الشريف قبيلة الحنانشة[6]، وهم أخوال مراد الباي الثالث أي حفيدهم وهو الذي فتك به ابراهيم الشريف يوم 8جوان 1702م، ما اضطر سلطان الحنانشة ابن منصر إلى

---

1 ألفونص روسو، المرجع السابق، ص153.

2 محمود مقديش، المصدر السابق، ص 151.

3 De Grammont H.D, Correspondance Des Consuls D'Alger (1690-1742), Adolph Jourdan Libraire Editeur, Alger, 1890, p 51.

4 محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص28.

5 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 43.

6 اختلفت الآراء وتنوعت عن أصل هاته الأسرة فهناك من يرجعها للفرس وهناك من يرجعها إلى ولاد صولة من عرب بني سليم، استطاعت هاته الأسرة أن تفرض نفسها ونفوذها على حنكة الكاف التونسية حيث كانت تتمتع بنفوذ قوي بين قبائل المنطقة وتحيي الضرائب منها وبعد وصول العثمانيين إلى المنطقة بدأت النزاعات تبين اتجاه الأسرة، وكان أحرار الحنانشة يؤيدون بايات تونس في حين كان أولاد سعيد والأولاد صولة من بني سليم يدعمون أسرة إبن شنوف، ولقد استمرت هاته النزاعات بين الأسرة والحكام العثمانيين حتى بداية القرن 17م، مع العلم فإن هذه الأسرة كانت تعمل دائما لصالح الإيالة الجزائرية هجومها على تونس وتسبب في هزيمتها. ينظر: جميلة معاشي، الأسر المحلية في بايليك الشرق الجزائري، (من القرن 10ه(16م) إلى 13ه(19م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015، ص ص 99، 100 .

قطع صلته مع تونس والتحالف مع أتراك الجزائر[1]، وهم من كانوا يحرضون الداي الجزائري على شن حملة تأديبية على باي تونس[2].

3- توجيه الحملة ومجريات المعركة:

بعد عودة ابراهيم الشريف إلى بلاده علم أن داي الجزائر مصطفى عشي عازما على حربه وأنه يتهيأ له، وفي شهر أفريل 1705م خرج الداي من بلاده متجها نحو تونس، ولهذا شرع الشريف في بناء البرج الكبير بالجبل الأخضر ليمنع به إلحاق الضرر بمدينة تونس ثم أمر ببناء برجين أخرين بنفس الجبل[3]، ولسوء حظ المدينة فقد استفحل فيها في تلك الفترة وباء الطاعون الذي كان يقتل يوميا حوالي سبعمائة شخص، حيث أحصي من مات بسببها في ستة أشهر حوالي أربعين ألفا فما خف الطاعون إلا وعساكر الجزائر قد اقتربت شيئا فشيئا من الكاف[4].

وعندما شاع الخبر أن الجيش الجزائري بقيادة الداي عشي مصطفى[5] قد أخذ يقترب من مدينة الكاف التونسية، راح إبراهيم الشريف يضاعف من سرعة زحفه نحوهم ويقوم بتعزيز القوات المرابطة في تلك المدينة ثم حط رحاله في الحد الفاصل بين البلدين منتظرا اللحظة للإشتباك مع عدوه، ولكن لسوء حظ الشريف ومع اقتراب القوات الجزائرية وتراءى الجيشان خذلتهم قبيلة أولاد سعيد التونسية وبعض القبائل الأخرى مثل قبيلة دريد الجبارة التي انضمت للجزائريين، وازداد حظه سوءا عندما خذلته بعض القوات النظامية التي كانت تحت قيادة وزيره محمد بن مصطفى، ورغم الخيانات المتوالية إلا أن الشريف لم يستسلم حتى أتاه وفدا من محلة الجزائر التي نصبت أخبيتها على ضفاف وادي التين قرب الكاف[6].

ومن جملة ما طلبه الداي مصطفى عشي من إبراهيم الشريف ما يلي:

---

1 صالح عباد، المرجع السابق، ص148 .

2 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص43.

3 نفسه، ص44.

4 محمود مقديش، المصدر السابق، ص152.

5 صعب علينا إيجاد ترجمة وافية للداي مصطفى، لكن يذكر المفتي أن ولايته كانت يوم الجمعة 6 صفر 1112هـ/1700م إلا انه تعرض لمؤامرة فيما بعد وهذا يعد عودته مع محلة الشرق، وكان قرب رأس نافورة واعتزم الوصول إلى القليعة لكنهم أدركوه وذبحوه ودفن بها عام 1705م.ينظر: شاوش ابن المفتي حسين بن رجب، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلماءها، تح: فارس كعوان، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009، ص ص 58، 59.

6 ألفونص روسو، المرجع السابق، ص156.

- ✓ دفع مقدار من المال(من المتوقع أن تكون مصاريف الحملة).
- ✓ إرسال ألف بعير.
- ✓ تقديم أولاده كرهينة حتى يتم دفع المشروط[1]

إلا أن إبراهيم الشريف عظم عليه الأمر واستصعبه، حيث رفض إرسال أولاده وقال:"...والله لا أفعل هذا ولو قطعت إربا إربا" فقرر كاهيته آنذاك حسين بن علي أن يكون هو الرهينة بدلا عن أولاده كي يطفئ نار الفتنة حتى يتحقق المطلب المشروط للداي مصطفى، ولكن إبراهيم الشريف لم ينتظر حتى يبلغ الرسل قرار مجلسه، وراح يعطي قرارا لجنده بالتأهب لمحاربة عسكر الجزائر، وهذا ما استنكره خليفته الذي اعتبره نقضا للعهد.[2]

أخذ إبراهيم موقعا مرتفعا يشرف على محلة الجزائريين وهي نازلة ببحيرة الكاف ولكنه موقع لا يمكن الدفاع عنه بواسطة الخيالة، ومن ذلك الموقع أمر فرسانه بالهجوم على الجزائريين الذين رآهم قد عاثوا فسادا حيث أهلكوا الزرع بدوابهم فهجموا عليهم وهزموهم، ثم باغتتهم القوات الجزائرية التي هزمتهم وأرتهم قوتها فتخوف الباي منهم وحاول تغيير خطته الحربية لكنه لم يوفق واشتد القتال بينهما وتمكن الجزائريون من هزيمتهم وأخذه أسيرا إلى محلتهم، أما عسكره فلقد رجعوا إلى الحاضرة تونس مهزومين تاركين محلتهم للجزائريين الذين لم يلاحقوهم بعد فرارهم[3]، ثم لم يلبث شقيقه محمد الشريف الذي لم يعد بإمكانه الصمود في قلعة الكاف خاصة بعد سقوط أخيه في الأسر، حيث أجبر هو الآخر على الإستسلام مع حاميته[4].

ومع أواسط ربيع الأول 1117هـ/أوائل شهر جويلية1705م انتهت ولاية الشريف على تونس وكانت مدتها ثلاث سنوات وشهران وبضعة أيام[5].

4- **نتائج الحملة:** ويمكننا رصد نتائج هذه الحملة في النقاط التالية:

---

1 أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج2، الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس، 1963، ، ص53.

2 محمود مقديش، المصدر السابق، ص153.

3 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص 46، 45.

4 الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تق وتح وتع: محمد زينهم محمد عزب، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013، ص240.

5 أحمد ابن الضياف، المصدر السابق، ص.54

- ✓ إنهزام الجيش التونسي في هذه الحملة ووقوع قائدها ابراهيم الشريف في الأسر.
- ✓ إستيلاء الجزائر على محلة الباي التي تركها جنده وغنم فيها 100000بياستر كانت موجودة في المحلة[1].
- ✓ مصادرة أملاك ابراهيم الشريف، كما استولوا على كل المؤونة الغذائية الموجودة عنده.
- ✓ الاستيلاء على مدينة الكاف الحدودية.[2]

5- تداعيات الحملة الجزائرية على تونس: أمام كل هذه التطورات الحاصلة والحملة الناجحة التي حققها الداي مصطفى على تونس، لابد أن هناك تغييرات طرأت داخل الفضاء السياسي التونسي، بداية من إعتلاء الحسينيين العرش التونسي، وهذا ما سنتطرق إليه في التالي:

5-1- إعتلاء الحسين بن علي عرش تونس وصراعه مع الداي مصطفى:

أصبح الطريق نحو الحاضرة تونس مفتوحا للداي مصطفى وعسكره مما سبب الخوف والجزع لدى سكانها، وخاصة وأنهم دون ولي يحرصهم، مما اضطرهم إلى التفاوض في هذا الأمر مع استخدام الشرع والعقل معا وهو البيعة لإمام متفق عليه، وإتفق أهل الحل والعقد من العلماء والأكابر الجند ووجوه الحاضرة على مبايعة الحسين بن علي لما يعلمون من حميد خصاله وحزمه، وطلبوا منه قبول بيعتهم وجمع كلمتهم في متسع مصرا على عدم القبول فقال له العلماء :"يجب عليك القبول لا سيما والحالة هذه، فأجاب دعوتهم ودخل معهم الحاضرة لقبول البيعة[3].

وأمام كل هذه المستجدات الحاصلة ومع إعتلاء الحسين بن علي عرش تونس الذي أنهى الحكم العسكري الذي فرضه إبراهيم الشريف[4]، والداي مصطفى مازال مقيما ومعسكرا ببلدة الكاف، **فكيف سيتعامل الطرفان مع الوضع الراهن؟ وهل سيقبل الحسين بن علي تمركز الداي مصطفى في الكاف؟ وهل سيرضى بتدخلات الداي الجزائري في شؤون تونس السياسية ؟**

5-2- التحصينات العسكرية قبل الحملة:

---

1 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص46.

2 عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة المغربية للطباعة و النشر، بيروت، 1989، ص 454.

3 أحمد ابن الضياف، المصدر السابق، ص 84.

4 A.Guellouz, & al, op.cit, p81.

تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن محلة الجزائر كانت معسكرة عند مدينة الكاف التونسية عندما اعتلى الحسين عرش تونس، ولهذا سارع الحسين بإصدار أوامره بالشروع في تحصين عاصمته كي يدرأ عنها حصار الجزائريين الذي كانت جميع الدلائل تشير إلى أنه سيكون شديدا وقاسيا[1]، ولهذا قام على جناح السرعة بالقيام بعدة تجهيزات أهمها:

- ✓ الشروع فورا وبحماس في الدفاع عن مدينة تونس.
- ✓ الدخول في مفاوضات مع الداي مصطفى من أجل إقناعه على الإنسحاب من البلاد التونسية، وكذا كسب بعض الوقت لاستكمال الإعداد للدفاع عن العاصمة وفي أثناء المفاوضات قام بما يلي:

- تركيب المدافع على أبواب المدينة وترتيب الحرس عليها.
- حشد العساكر والمتطوعين لنجدة المدينة وتكليف العلماء والاتصال بهم لتحريضهم على القتال، وتذكيرهم بوجوبه عليهم دفاعا عن الأنفس والحرم والأموال.
- إصدار الأمر إلى أهالي القرى التي بين الكاف وتونس بالرحيل عنها، خوفا عليهم من عساكر الجزائر.
- حفر خندق محيط بالمدينة وإنجازه في وقت قصير.
- إستكمال إنجاز البرج الكبير الذي شرع إبراهيم الشريف في إنجازه بالجبل الأخضر وإنجازه فيوقت قصير وتجهيزه وغيره من الحصون التي تستلزم تجهيزا[2].

5-3- دخول الداي مصطفى في مفاوضات مع باي تونس:

ففي 12 من ربيع الثاني 1117هـ /الموافق ل10أوت1705م قدم إلى الحاضرة تونس رسل من المحلة الجزائرية الموجودة بالكاف يحملون رسائل صيغت في أسلوب ينم عن الرغبة في عقد الصلح، حيث أبدى داي الجزائر عشي مصطفى في تلك الرسائل المقترحات السلمية، مع إبداء رغبته بالذهاب إلى مدينة تونس من أجل الصلح، ولكن في الوقت ذاته كانت قد وصلت الرسائل وإجتمع الديوان حولها وكان قد حضر فيها الداي وأعضاءه الرسميين وممثلون عن رجالات القضاء الدين والأهالي، وبعدما تليت مقترحات الداي على مسامع الحاضرين جاء جوابهم جميعا بضرورة منع الداي الجزائري من دخول مدينة تونس وعليه مغادرة الكاف، بإعتبار أن المهمة التي جاء من أجلها قد إنتهت وهي كما ذكرنا آنفا أنهم أرادوا تنحية إبراهيم الشريف على العرش التونسي وكان لهم ذلك، وبعدما نصبت أهالي تونس من ترضاه دايا عليهم فعليهم المغادرة.

---

1 ألفونس روسو، المرجع السابق، ص 163.

2 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص 51، 50.

نقل هذا الرد إلى محلة الجزائر مع وفد تونسي يتألف من بعض أعضاء الديوان وعدد من الأعيان نذكر منهم الولي علي عزوز ورئيس الفتوى الشيخ عبد الكريم درغوت والشيخ المفتي أبو الحسن علي الصوفي والقاضي أبو العباس أحمد الرصاع، وإستقبل الداي مصطفى عشي الوفد التونسي بكل ترحاب لكنه رد على إعتراضاتهم على بقائه على رأس المحلة، قائلا:" إن مبتغاه هو الصلح وطمأنينة الجميع وبأنه ما فكر في التوجه إلى مدينة تونس سوى للتأكيد ذلك" [1].

ومن المرجح قوله هنا أنه كانت للداي رغبة داخلية حيث أراد أن يفرض تبعية تونس على الجزائر وبالتالي دفع الضريبة والتي تعبر عن ذلك، وبالتالي فهو بهذا الشكل سيحقق ما حققه سابقيه وهي تبعية الإيالة التونسية للجزائر وأن لولا الداي الجزائري لما تخلصوا من إبراهيم الشريف، ومن الواضح أيضا أن هذا الأخير كان على علم بنوايا الداي الجزائري الخفية، وسواء كانت النية سلمية أو غير ذلك سنلاحظ في التالي.

مع العلم أن الوفد التونسي حاول إقناع الداي بأن يغادر البلاد مقابل دفع أتعاب الحرب إلا أنه رفض وغادر الوفد خائبا لفشل المفاوضات، وطلب منهم التفاوض مع رسل غيره، ولهذا أرسل الداي حسين بن علي وفدا آخر ومعه الهدايا إلا أن الرفض كان العنوان مجددا [2].

الواضح أن سياسة حكام الإيالة الجزائرية إتجاه تونس لم تتغير فهم مازالوا يعتبرون تونس تابعة لهم لحد الساعة بالرغم من تغيير نظام الحكم في تونس وتغير الأسرة أيضا، فبعدما كان المراديون أتباع الإيالة الجزائرية والتي كانت لهذه الأخيرة صلاحية العزل والتنصيب سنرى في بداية العهد الحسيني غير هذا لأن الحسين كان قد تولى من طرق أعيان تونس وأن هذا الأخير سيسعى ليحافظ على جو السلام بين الإيالتين بشرط أن يكونا بنفس الزاوية وليست علاقة التابع والمتبوع.

إلاّ أن الديوان التونسي وخاصة الأعيان كانوا قد ملوا وقاحة الداي مصطفى وتعجرفه، لأن الداي قد أرسل في 29جويلية مبعوثين جزائريون إلى تونس محملين من قبله بقفطانين أحدهما للباي وآخر للداي وأمرهما بتقديم 500.000 بياستر تعويضا له عن مصاريف الحرب كما أمرهما بتخصيص ميناء غار الملح لإركاب الجند الجزائري منه إلى الجزائر وعقد في تونس مجلس عام حضره كل سكان المدينة في 30جويلية1705م أمام باب البرج، وإنفقوا على أن يقولوا لمبعوثي الداي: أنهم لا يودون أن يسمعوا بالصلح وأنهم سيحاربون حتى الموت بدل أن يستجيبوا لما طلب منهم، وذكروا الداي أن كلا من

1 ألفونس روسو، المرجع السابق، ص ص 163، 164.
2 نفسه ص 164.

المملكتين يقصد الإيالتين التونسية والجزائرية لهما سيد واحد من السلطان العثماني، ولهذا فهم يرفضون أن يستلموا القفطانين من رجل هو نفسه من رعايا السلطان[1].

5-4- فشل المفاوضات وبداية الحصار على تونس:

كان العداء والصراع المتجدد سببه السلوك السيء لعسكر الجزائر وقائده، لأن ذرائع التدخل هذه المرة مضللة ومجحفة في حق التونسيين[2]، حيث ومع فشل هذه المفاوضات ارتحلت المحلة الجزائرية نحو طبرية والتي بقي بها أياما يخرب وينهب فيها، ثم إرتحل إلى تونس وخيم بمكان يقال بومجوس بجيش قوامه أربعين ألف مقاتل ما بين راجل وراكب، ومع العلم أيضا فإن أكثر فرسانه من عربان المملكة التونسية حسبما ذكر في إتحاف أهل الزمان وكل هذا يوم السبت 9جمادى الأولى 1117هـ/29أوت1705م وجند تونس آنذاك ثمانية عشر ألف مقاتل، وجرت المعركة بين الإيالتين وأبلى فيها الداي الحسيني بلاءا حسنا وهربت طائفة منهم إلى تونس حنينا للوطن[3].

الواضح أن فعلة الداي مصطفى تؤكد نواياه ومخططاته فهو بذلك أراد إخضاع تونس وإعلان تبعيتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ولقد لقوا الرد المناسب من الباي التونسي بأن تونس تتبع مباشرة الأستانة وليس للجزائر حق في فرض سلطانها عليها، ولكن من ناحية أخرى لولا تدخل الجزائر وتنحية إبراهيم الشريف من على العرش لما وصل الحسينيون للحكم ولعل هذا ما ركز عليه الداي مصطفى على أساس رد الجميل.

لأن الداي كانت له رغبتين على الأقل وهما:

1-إخضاع تونس إلى الجزائر من خلال تنصيب داي الجزائر لباي تونس ودايها.

2-إلزامها بدفع 500 ألف بياستر تعويض لمصاريف الجزائريين على حملتهم فلم ينته الطرفان إلى إتفاق يبعد شبح الحرب بينهما مرة أخرى[4].

وبعد إنقضاء شهر كامل على محاصرة الجزائريين لتونس وبعد عدة جولات من الإشتباكات يلاحظ أن الجزائريين قد إندهشوا من مقاومة التوانسة لهم، خاصة بعدما كبدوهم خسائر فادحة جعلوهم يندمون على عدم قبول الصلح، وهذا ما جعل التوانسة يرفضون الدخول في مفاوضات أخرى، غير أنهم طلبوا منهم إعادة كل ما سلبوا في الكاف وطبرية، كما إشترط عليهم أن يفكوا الحصار كليا ويغادروا التراب التونسي نهائيا قبل الخوض معهم في تسوية أو مفاوضات.

---

1 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 52.

2 A.Guellouz, & al, op.cit, p85.

3 أحمد ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص 88.

4 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص53.

وهذا القرار المتعصب أزعج الداي مصطفى ما جعله يصر على إحكام الحصار حول الحاضرة التونسية، إلا أن التخلي من طرف بعض القبائل التونسية التي كانت موالية له أجبره على التخلي هو الآخر عن عناده، كما تخوف من إقدام حلفائه من الأعراب التوانسة الآخرين على خذلانه بدورهم، ولهذا قرر الداي الإنسحاب وهذا بتاريخ 18جمادى الثانية بالإسراع تحت جنح الظلام يطوي خيام معسكرهم تاركين وراءهم مدافعهم وآلاتهم الحربية وأكثر أخبيتهم، ومع طلوع الفجر إنطلق فرسان حسين بن علي في إثرهم يتعقبونهم، وفي طريقهم إلتقوا بتعزيزات جزائرية قوامها خمسمائة بعير محملة بالميرة وستين بغلا موسوقة بالبارود، كان قد وجهها عامل عنابة لنجدة الداي عشي مصطفى، إلاّ أنها كانت من نصيب التونسيون والباي حسين حيث إستولوا عليها ولكن تمت مطاردتهم من طرف الباي حسين وجيشه النظامي إلى غاية عبورهم الطريق المؤدي إلى إيالتهم[1].

ومع أن نهاية داي الجزائر كانت الخنق بسبب مؤامرة حكيت ضده حيث لم يتمكن من دخول المدينة[2]، ولعل السبب وراء هذا التصرف الغير إنساني هو الخيبة التي جرها معه وتضييعه لتونس، وخلفه الداي حسين خوجة هذا الأخير سيحاول جاهدا إستغلال الأوضاع السياسية المتردية بالإعتبار أن الحسين بن علي لم يستقر جيدا في حكمه وخاصة أن الداي محمد خوجة الأصغر هذا الذي سيحاول إسترداد هيبة ومكانة الدايات في الإيالة التونسية والذي سيقع في مجادلات مع الحسين، وهذا ما سيفتح الطريق أمام الداي الجزائري الجديد بالتحكم بالأوضاع بها حيث سيطلق سراح إبراهيم الشريف واعدا إياه بإسترداد الملك له مقابل التبعية بالإيالة الجزائرية.

ولقد سرح الداي الجديد إبراهيم الشريف في أوائل شهر نوفمبر عام 1705 ليقوم بإسترجاع الملك في تونس بعد أن قبل بالشروط التي اشترطها عليه وهي:

1-دفع مبلغ 200.000 بياستر بعد إسترداد الملك في تونس.

2- القبول بدفع ضريبة سنوية.

3- إبقاء أسرته في الجزائر لضمان الوفاء بما إلتزم به له[3].

5-5- التدخل العثماني لفك النزاع بين الإيالتين التونسية والجزائرية:

مع عودة إبراهيم الشريف إلى تونس تمكن الباي الحسين من القضاء عليه بواسطة رجاله وهو عائد إلى تونس حيث ثارت عليه الرعية التونسية وقتلته[4]، وهكذا قضى

---

1 ألفونص روسو، المرجع السابق، ص 165.

2 De Grammont H.D, op.cit, p51.

3 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص 67، 66.

4 محمد بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 29

الحسين على آمال الجزائريين كما ضيع المكسب المالي عليهم الذين كان من المفروض لإبراهيم دفعه في حال تمكن من حكم البلاد التونسية، كما فوت عليهم فرصة الإنقضاض على تونس وإمتداد نفوذهم عيها من جديد.

وبعد كل هذه الأحداث والمجريات كانت قد أرسلت الدولة العثمانية مبعوثا إلى البلدين بإعتبارهما ولايتين عثمانيتين حاملا معه أوامر السلطان العثماني يقضي بوجوب إقامة السلام بينهما والتفرغ للخطر الخارجي، فوافق الطرفين على أمر السلطان المبعوث، ولكن كان سلام حذر بينهما لأن كلاهما كانا يبحثان عن المناوئين للحكم في الإيالتين من أجل إثارة المشاكل، مما جعل الثقة بينهما غير تامة[1].

خاتمة: ومن النتائج المستخلصة من هذا المقال نذكر ما يلي:

- ✓ تخوف الداي مصطفى من طموحات ابراهيم الشريف بعدما قام هذا الاخير بتنظيم أمور إيالته السياسية والعسكرية، وحتى تخلفه عن دفع الضريبة جعله يفكر في كيفية كسر شوكته حتى لا يصبح خطرا على إيالة الجزائر، ولهذا نجاح حملته دليل على أن الشريف لم يقوي مركزه جيدا لأننا رأينا أن نهايته كانت على يد رعية تونسيين.
- ✓ تولي الحسين بن علي عرش تونس وهذا بعد مبايعته عليها، ولإستحكامه القوي لشؤون الإيالة نراه يرفض مقترحات الداي مصطفى رغم إرسال هذا الأخير مبعوثين بخصوص هذا الشأن، وفشل المفاوضات بينهما راجع إلى رغبة كل منهما في فرض نفسه على الآخر.
- ✓ فشل الحصار المتشدد الذي فرضه الداي مصطفى على تونس بسبب مقاومة التوانسة العنيفة له، ولهذا نراه ينسحب بعد تخوفه من خذلان القبائل له هذا من جهة، ومن جهة أخرى بسبب مهاجمة الفرنسيين لمدينة الجزائر.
- ✓ النهاية السيئة للداي مصطفى حيث مات خنقا وهذا في طريقه لمدينة الجزائر، وبالتالي انتهت أمالي الجزائريين في مد نفوذهم على تونس.
- ✓ نستنج أن الحسين قد قضى على آمال الحكام الجزائريين كما ضيع المكسب المالي عليهم الذي كان من المفروض لإبراهيم دفعه في حال تمكن من حكم البلاد التونسية، كما فوت عليهم فرصة التواجد بتونس وامتداد نفوذهم عليها من جديد، ورغم هذه الإختلالات الحاصلة إلاّ أن رشادة العقل لحكام الإيالتين كانت أقوى من تلك النزاعات الداخلية، ولعل الظروف الداخلية لهما كانت بحاجة إلى إلتفاتة أكثر من التناحر ولهذا نرى نوعا من السلام وحسن الجوار بين الإيالتين.

1 عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص 66-71.

✓ غياب شبه كلي للسلطة العثمانية في فك النزاع سواء داخل البلاط التونسي أو حتى في صراعهم مع الجزائر إلا في فترات متقطعة، وعليه فإن أكبر خطأ اقترفه حكام تونس هو استدعائهم لحكام الجزائر في فك نزاعاتهم السلطوية فيما سبق، حيث أصبح أي تغيير في هرم السلطة التونسية دون الرجوع إلى حكام الجزائر سينذر بغضب جزائري لأن التدخل بالنسبة لها فيما بعد أصبح ضرورة حتمية، لهذا نرى التدخل العثماني لفك الصراع متأخرا نوعا ما، حيث فرض عليهم إقرار التعايش والسلام في السنوات اللاحقة.

ورغم وجود بعض التذبذبات السياسية بين الإيالتين إلاّ أن رشادة العقل لحكام الإيالتين كان أقوى من تلك النزاعات ولعل الظروف الداخلية لهما كانت بحاجة إلى إلتفاتة أكثر من التناحر ولهذا نرى نوعا من السلام وحسن الجوار بين الإيالتين في الفترات المقبلة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس: الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، ج2، 1963.
2. ابن المفتي حسين بن رجب شاوش، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشاوات الجزائر وعلماءها، تح: فارس كعوان، الجزائر: بيت الحكمة، ط1، 2009.
3. ابن عبد العزيز حمودة بن محمد، الكتاب الباشي، تح: ماضور محمد، تونس: الدار التونسية للنشر، ج1، 1970.
4. إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تر وتق: خليفة محمد التليسي، القاهرة: الدار العربية للكتاب، ط2، 1991.
5. الإمام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس1782م- 1814م،تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1980.
6. التر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة المغربية للطباعة و النشر، ط1، 1989.
7. بن خروف عمار، العلاقات السياسية بين حكام الجزائر وتونس في القرن18م- 12ه، الجزائر: دار الأمل للنشر والتوزيع، 2017.
8. بن ميمون الجزائري محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تق وتح: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1981.
9. حسني عبد لوهاب حسن، خلاصة تاريخ تونس، تونس: دار الكتب العربية الشرقية، ط3، 1332ه.

10. روسو ألفونص، الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر، تر وتق : الوافي عبد الكريم، ليبيا: منشورات جامعة قاريونس، ط1، 1992.
11. عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م - 1830م، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، د.س.
12. العنتري محمد الصالح، فريدة المنسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة و استيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مر وتق وتع: يحي بوعزيز، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، د.س.
13. غلاب عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الامبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ج2، ط1، 2005.
14. فيرو شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العثماني حتى الغزو الإيطالي، تر وتح وتق :محمد عبد الكريم الوافي، ليبيا: مشورات جامعة قايونس، ط3، 1994.
15. المسعودي الباجي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تق وتح وتع: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة: دار الآفاق العربية، ط2013، 1 .
16. معاشي جميلة، الأسر المحلية في بايليك الشرق الجزائري، (من القرن 10ه(16م) إلى 13ه(19م)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2015.
17. مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي الزواوي، محمد محفوظ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، مج2، 1988.
18. هنية عبد الحميد ، تونس العثمانية بناء الدولة والمجال، تونس: منشورات أوتار تبر زمان، 2016.

المراجع بالأجنبية:

1. De Grammont H.D, Correspondance Des Consuls D'Alger (1690-1742), Alger : Adolph Jourdan Libraire Editeur, 1890.
2. A.Guellouz, & al, Histoire général de la Tunisie, Tunis: Sud Edition, T3, 2010.